فى الادب المصرى القديم

فنون الشعر الفرعونى

القصائد — القافية — الاوزان — البديع — الجناس

للأستاذ حسن صبحى

مؤلف قصص البردى

يحفظ التاريخ للمصريين القدماء سبق الابتكار فى كل ناحية من نواحى المدنية. فنراه يسجل لهم أولوية الصناعة. كما ينعتهم بالزراع الاول، ثم يقص علينا من أنباء بعثاتهم التجارية الى النوبة والى الشام والى العراق مامكن لذوى المطامع منهم أن يستبسلوا فى الأغارة على هذه البلاد بين حين وحين، وهم اذ ينتصرون يملكون الارض ومن عليها فينشرون من أسباب المدنية بين أهل هذه البلاد ما بقى أثره الى اليوم فيها، سواء كان فى أساليب الزراعة أو فى طرائق الصناعة أوطرق التجارة، أو كان فى اللغة والنحت والتصوير، أو الموسيقى والرقص والشعر، مما بقى أثره لهذا الوقت الحاضر، فى روح كل فن أو مهنة أو صناعة تمت للعصر القديم فى أى من هذه الاقطار بصلة.

وكما كان المصريون فى كل فن الأول، فقد كانوا أيضاً الشعراء الاول لهذا العالم، رأوا وأحبوا مايحيط بهم من جمال الطبيعة الهادئة، ومناظرها المتكررة الساكنة، فنظموا الشعر وقصدوه فى وصف النيل ومجراه، وفى مطلع الشمس ومغربها، وفى فضية القمر وشحوبه، وفى خضرة الحقل ووحشة القفار. ثم عاشوا بين أسباب المدنية التى أقاموها فوجد الحب والبغض والحسد والشكر، وقامت الحروب وأقيمت الصلوات، وأحسوا كل هذه الصور فى الحياة فقالوا الغزل والحمد، وهجوا واستعدوا، وأشادوا واستنهضوا، وكان لابد لقول هذه الصور المختلفة من الحياة من قوالب تصاغ فيها، فخلقت القوالب وكانت القصائد والقوافى والاوزان والسجع، وتطورت افتنانهم ورقى فدخلته التباديل، ولعب فيه الجناس اللفظى، اليست هذه كلها أحدث فنون الشعر العصرى؟

القصائد المصرية

مذ خلق المصريون القدماء لانفسهم الكتابة الهيروغليفية، وهم يكتبون الشعر فى صورة غير صورة النثر. يكتبونه مقطوعات مشطرة ثلاثية أو رباعية الشطرات، متقاربة الطول، مرتبطة المعنى، تستقل كل مقطوعة منها بمناسبة، تميز المقطوعة من غيرها، حتى فى أقدم صور الشعر، قبل أن يفطن المصريون الى ضرورة فصل الشطرات عن بعضها بنقط حمراء فى كتابته للدلالة على الوقف.

وانك لتجد فى القصيدة التالية مايعطيك صورة حقيقية لاقدم اشكال الشعر المصرى، وهى منقولة عن الاصل الهيروغليفى:

«أنت تبحر فى سفينك العطرى الخشب
يملأه الرجال من المقدمة الى السكان
فتصل الى مضيفتك العامرة هذه
التى ابتنيتها لنفسك»

«يملأ فمك النبيذ والخمير
والخبز واللحم والفطير
وتذبح الثيران وتفتح الادنان
وتنشد الاغانى كلها أمامك»

«يضمخك كبير معطريك بالدهون الزكية
ويحمل اليك الاكاليل سقاتك
ويقدم اليك الطيور ناظر فلاحيك
كما يقدم اليك السمك صيادك»

القوافى

وليس التشطير والمقطوعات وحدها هى ماتدل على شعرية النظم المصرى، وتميزه من النثر، لكن القوافى أيضا تدل عليه وتميزه. ولو أنها من نوع غير الذى نعرفه فى شعرنا الحاضر فى أية لغة من اللغات. فقد كانت قوافى الشعر المصرى قوافى استفتاح، يستهل بها الشاعر ابيات قصيدته، ويكررها فى مستهل كل مقطوعة، كما ترى فى القصيدة التالية المنقولة عن الهيروغليفية، والمعروفة بقصيدة (جدل المتعب من حياته مع روحه):

شوف كم هو بغيض اسمى
شوف اكثر من رائحة الدود
فى ايام الحر حين تكون السماء ساخنة
شوف كم هو بغيض اسمى
شوف أكثر من صيد السمك
فى يوم الصيد حين تكون السماء ساخنة
شوف كم هو بغيض اسمى
شوف أكثر من رائحة الطير
أكثر من مستنقع فيه أوز

الى آخر هذه القصيدة الطويلة التى تبدأ دائماً بـ (شوف كم هو بغيض اسمى) ، وأنا اذ أعرب اللفظ المصرى القديم الى اللفظ الحديث الدارج (شوف) انما أريد أن أعطى القارىء فكرة صحيحة عن معنى اللفظ الاصلى الذى يراد به أكثر من الرؤية بالعين ، ومقصود به أن يلفت نظر القارىء او السامع فى تعجب لمبلغ التشبيه من نفسه ، ووقعه فيها . ما تحمله كلمة (شوف) الدارجة التى نستعملها فى حديثنا الآن عندما نريد لفت النظر والحس الى التعجب من أمر نهتم له .

الأوزان الشعرية

من النقائص الكبيرة فى دراستنا للغة المصريين القدماء ، عدم معرفتنا معرفة أكيدة لنطق الفاظها كما كانوا ينطقونها . وكل ما استطعنا أن نصل اليه فى هذا هو النطق الذى احتفظت به اللغة القبطية لالفاظها وهى تأخذها من المصرية فتكتبها بحروف اغريقية ، وتخضعها حتما لاختلافات كثيرة متباينة ، يرجع بعضها لاختلاف نطق اللهجات المصرية بين صعيدى وبحيرى وفيومى وأخميمى ، والبعض لاختلاف نطق حروف الكتابة الاغريقية عن المصرية ، والآخر لتدخل كثير من الكلمات الاجنبية فى المصرية ، وأخيرا لاضطرار الاقباط الى نحت كثير من الالفاظ الجديدة مما يتفق مع تطور العمران وازدياد مقتضيات الحياة . واتساع أسبابها .

لهذا كله نعتمد فى أوزان الشعر على ما لدينا من الشعر المصرى المتأخر ، الذى كتب فى عهد المسيحية ، وبقى لنا باللغة القبطية يعطينا صورة هى أقرب الصور الى الاصل القديم من غيرها .

والثابت الآن من قواعد النحو والصرف فى اللغة المصرية القديمة التى أصبحت راجحة التفسير فى العصر الحاضر ، ان كل كلمة ذات معنى فى اللغة اسما كانت أو فعلا أو صفة — لم تكن تحتوى الا على حرف متحرك واحد شديد الحركة ، واذن فكل شطرة من شطرات الشعر المصرى تحتوى على وقفتين أو ثلاث او أربع ، هى مواقع الحروف المتحركة الشديدة الحركة ، بينها وهدات متفاوتة الطول والقصر ، تكون الميزان الشعرى للشطر ، وتكون بهذا الوصف ميزانا شعريا مطلقا لم تصل بعد الى ربط صنوفه وتبويبها

واليك مقطوعة من الشعر المصرى المتأخر بنصها القبطى مشار تحت مواضع الحركة الشديدة فى شطراتها بخطوط قصيرة ، والى جانبها تعريبها ولم أجد خيراً منها مثلا لبيان أوزان الشعر المصرى :

النص المصرى (بالقبطية)	التعريب
أرشان إرأومى بوك إبشمو	رجل آخر يذهب للخارج
تفراورومبى شاف اكتوف أبف إى	يدور سنة ثم يعود الى بيته
أ- أرخيليتس بوك إتانزيف	لكن أرخيليتس ذهب للمدرسة
اس اوميشى إنهو ابينآ وأبف هو	فكم هى الأيام حتى انظر الى وجهه

البديع

والشعر المصرى يفيض بالبيان والبديع ، وهو فى كل أطواره وعهوده يدل على أن الشاعر المصرى لم يكن يكتفى بالسطر الواحد فى المقطوعة ليدل على معنى يريد أن يصوره فى صورة بارزة جميلة ، فاكسب بتلك الفصاحة لغته ثوبا أنيقا رقيقا ، صور دقة احساسه بما كان يبديه من العبارات المتشابهة المعنى المختلفة الالفاظ البديعة الاختيار ، التى يقتضى تخيرها نعومة فى الذوق ، وعلوا لا يتفق لكل الناس . فهو يقول حين يتحدث عن « تحوت »

« يستيقظ القاضى - يظهر تحوت »

والقاضى هو تحوت إله الحكمة ثم يقول عن الملك .

« وعندئذ تكلم اصحاب الملك
واجابوا أمام ربهم »

«البقية على صفحة ٢٤»